مقدمة

فى عام ١٩٠٠ ، وعند أسوار بلدة « كاسورى » الواقعة عند ملتقى نهر شارى « بلوجون » فى قلب أفريقيا الوسطى وهى المدينة التى عرفت فيما بعد باسم « فورت لامى » استطاع الاستعمار الفرنسى الذى انحدر اليها عن طريق مستعمرات الجزائر ونيجيريا والكونغو ، أن يصرع بطلا سودانيا ، وأن يستبيح لنفسه التمثيل بجثته والطواف برأسه فوق إحدى الحراب فى الأسواق بعد أن كان مجرد ذكر اسمه فى تلك البقاع كفيلا بأن يوقع الرعب فى قلب كل خائن أو غاز .

وهذا الكتاب يروى قصة ذلك البطل . رابح الزبير . . وقصة الاستعمار الفرنسى الذى ظل رابح قرابة عشر سنوات يكافحه باسم أهالى تلك البلاد كفاحاً مجيداً لم يبخل فيه بروحه أو أرواح رجاله وأفراد أسرته من بعده . . وكان تيار الغزو قد بدأ يتنبه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى تلك الأراضى البكر فى مجاهل أفريقيا باعتبارها سوقا جديدة للاستغلال ومصدراً لا ينفد للمواد الخام اللازمة لعجلة الصناعة وقد بدأت تدور عندئذ فى أوروبا فى سرعة عاصفة . فكان طبيعياً عندئذ أن تلد

الحاجة فى تلك البلاد أبطالا يذودون عنها ذلك التيار الزاحف ، وكان رابح الزبير من بين هؤلاء .. كان ذلك القائد الذى صافح النصر فى أكثر من مائة معركة دارت خلال مساحة امتدت آلافا من الأميال من بحر الغزال شرقاً حتى شواطئ بحيرة تشاد غرباً .

ولست أدعى أن أحداً من هذا الجيل سواء فى شمال الوادى أو جنوبه قد سمع شيئاً عن رابح أو ألم بقصة بطولته على شدة حاجة تاريخنا الحديث إلى ذلك . وإلى التفتيش عن سير أبطالنا ونشرها على الناس والعالم أجمع ليعلم الكل أن صفحة أفريقيا ، فى كفاحها ضد الاستعمار ، تشرق بسير رجال لا يقلون بطولة أو خلوداً عن أبطال الغرب الذين لم تكف المطابع أو مؤرخيهم عن تزويدنا بتاريخهم واخبارهم فى كل مناسبة حتى لقد زحموا علينا حياتنا ، وحتى لقد كدنا ننسى أن لنا تاريخاً . . وأن لنا أبطالا .

ونحن لا ننكر أن البطولة الانسانية العميقة لا تعرف وطنا .. وأن أبطال الحرية فى فرنسا مثلا هم أبطالنا أيضاً فى مصر عندما يصطرنا كفاحنا هنا من أجل الحرية إلى أن نستلهم مثلا عالياخالدة . ولكننا ننكر أن ننسى قوميتنا فى زحمة الدعوة إلى العالمية حتى ليصبح النشأ فى بلادنا أكثر علماً بفولتير ، وجان دارك ، وجان جاك روسو ، وابراهام لنكولن ، وغاندى ، منهم بعمر مكرم

وأحمد عرابى ، وعبد الله نديم ، والزبير رحمت ، ورابح الزبير ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد . .

من المسئول عن ذلك . . ؟

المسئول الأول هو الاستعمار من غير شك . . الاستعمار الذى لم يستبح أرضنا وقوتنا وأرواحنا فحسب ، وإنما استباح أيضاً ثقافتنا وفكرنا وعقولنا فحرم علينا بذلك أن نقرأ أو نكتب عن سير أبطالنا ممن رفعوا أعلام الجهاد ضده وبذلوا فى حربه من دمائهم وأرواحهم ما يتضائل بعده كل بذل أو فداء .

لقد فعل الاستعمار هذا فى كل مكان حل به . . فعله لكى يحافظ على كيانه ووجوده وإلا فهل كان الاستعمار الانجليزى يقوى على أن يظل سبعين عاماً جاثما على صدر الوادى شماله وجنوبه لو كان قد أتيح لأبنائه مثلا أن يشبوا على معرفة تامة صادقة بكفاح عرابى ضده فى الشمال وكفاح المهدى والزبير فى الجنوب فيعلموا بذلك أن ضحايا معارك الاسكندرية والتل الكبير وأم درمان ما زالت تصيح فى طلب الثأر . ؟

وهل كان هذا الاستعمار نفسه يقوى على الادعاء بأن جنوب السودان لما يزل على حال من البداوة لا تسمح له بأن يشارك فى تقرير مصيره لو كان قد أتيح لأهله يوما أن يقرأوا عن كفاح رابح كابن من أبناء هذا الجنوب أقام امبراطورية ، وحكم شعوباً ،

وقاوم جيوشاً ، ونشر الدين والعلم والحضارة فى قلب أفريقيا المظلم ..

كل هذا حدث فى أواخر القرن التاسع عشر أى منذ أكثر من خمسين عاماً . !

وهل كانت فرنسا تقوى على خداعنا وخـــداع الشعوب المستضعفة بأنها أم الحريات لو كان ابناؤنا بدلا من أن يلقنوا فى مدارسنا الشيء الكثير عن بطولات نابليون وفتوحاته ، يلقنون تفاصيل ما فعله نابليون هذا بخيله فى صحن الأزهر أو ما أوقعه من مذابح بعلماء القاهرة وأبنائها إبان ثورتهم عليه ، أو ما ارتكبه خلفاؤه بعد ذلك من بربرية ووحشية فى وسط أفريقيا عندما اجتزوا رقبة رابح وعلقوها فوق حرابهم ثم أتاحوا لفنانيهم أن يرسموا صورتها وأن ينشروها فى كتبهم وهى تنزف دما وقد تدلت عروقها وأغمضت عيناها وكأنما لتتاح لهم فرصة معاودة النظر إلى الصورة بين الحين والآخر فتلتذ بذلك نفوسهم وتطرب أرواحهم المتعطشة إلى السفك والتدمير وإراقة الدماء .

* * *

ولـكننا اليوم فى عصر بعث جديد . .

فان مؤامرة الاستعمار ضد تاريخنا وثقافتنا قد أزيح عنها الغطاء ورفع الحظر عن اسماء لم تـكن تذكر من قبل إلا همسا وفى سطور

قليلة متواضعة كاسم عمر مكرم الذى لم يكن يعرف عنه سوى القليل فاصبح اليوم علماً يدوى فوق المنابر وفى جنبات الميادين، وبدأت البلاد تشعر بحاجتها إلى التعرف على أبطالها وكتابة تاريخهم من جديد ففاز عرابى ببعض مايستحقه من تقدير، وبدأت توضع عنه والألسنة تكثر من ذكره، كما بدأ تاريخ المهدى الكبير فى السودان يتضح رويداً رويداً فاذا بنا نطالع فيه حقيقة كبيرة رائعة كان الاستعمار قد حرص دائما على إخفائها: وهى أنه لم يكن عدواً لمصر وإنما عدو الانجليز وحدهم. كذا لم تكد البلاد تحتفل من جديد بذكرى مصطفى كامل حتى نشرت صحائف كانت قـــد طويت عمداً بالأمس فعرف أكثرنا مالم يكن يعرف عن ذلك الزعيم الشاب الذى هز عرش اللورد كرومر فى مصر..

واليوم أيضاً يدخل اسم رائج مع غيره فى دائرة الضوء الذى يلقيه على تاريخنا شمس البعث الجديد فإذا بنا نستطيع أن نتحدث عنه فى صراحة وحرية، وإذابه هواسم يشرف الجنوب، وذكرى تثير الزهو فى نفوس رجال الحرب ممن خاضوا المعارك وعرفوا أسرار الحرب والنصر، وتبعث الفخر فى قلوب الأحرار وهم يقرأون حياته كدرس حبيب.

* * *

وحيث تكون البطولة تكون الخيانة أيضاً.. وحيث يوجد

الأحرار الذين يبيعون دماءهم فى سبيل بلادهم يوجد الفريق الآخر الذى يبيع بلاده من أجل أن توهب له حياة كالذل أو أشد ظلاما . . ولولا هذا التناقض الذى يكوّن بعض طبيعة الحياة وأساسها لما استطعنا أن نضع لأعمال البشر مدلولات محددة كالبطولة والحرية والخير والجمال . .

ومن هذا التناقض تصبح سير الأبطال والأحرار مجالا لتفاعل حى مستمر يستثير مع الاعجاب الضيق والسخط والثورة . . فمع النور فى تلك السير نحس بالظلام ونضيق به . . ومع البطولة فيها نتعرف على حدود الخيانة فنسخط عليها ومع الحرية أيضاً نلمس قوى البطش والاستبداد فنثور عليها . . أجل : نضيق بكل ظلام ونسخط على كل خيانة ، ونثور على كل بطش واستبداد .

وهكذا كانت حياة رابح . . ففيها من هذا التفاعل المستمر مالا يكاد يقف بنا عند زمن معين أو تاريخ بعينه أوحادثة بذاتها . . فلسوف تذكرنا خيوط الخيانة التى اصطدم بها رابح بخيانة توفيق خديوى مصر عندما استعدى قوات الانجليز على شعبه المسالم ، كما سنلمس فى بطش الاستعمار الفرنسى واستبداده صورة أخرى لما يدور اليوم من أحداث وفواجع فى تونس ومراكش ، ومن خلال الظلام والموت الذى أشاعته القوات الفرنسية فى هجومها على تلك الربوع الوادعة وهى تشرد النساء والأطفال وتحرق

دورهم وأقواتهم سوف تلمح مأساة الأطفال والنساء من أهل فلسطين وقد شردهم الاستعمار ، وحرمهم القوت والمأوى ..

ولا أحب أن يفهم عنى أحد أننى أقصد بقولى هذا ما يقول به البعض الآخر من أن التاريخ يعيد نفسه .. فما من شيء يرجع إلى الوراء والحياة لا تكرر نفسها ولا يمكن أن يكون هذا هو الدرس الذى نفيده من قراءة التاريخ .. وإنما أردت أن أقول إن الحقيقة واحدة فى كل مكان وأن الاستعمار الذى كافحه رابح منذ خمسين عاماً هو نفس الاستعمار الذى يقبض على عنق تونس ومراكش اليوم وهو نفسه الذى يطبق على فلسطين بأنيابه ..

إذن فنحن نثأر لرابح عند ما نثور على كل استعمار ، ونثأر لكل شهيد عند ما نحطم كل ظلم ، وليست سير الأبطال سوى دعوة للثأر ، وليس تاريخ المكافحين سوى حصن على الكفاح ..

° ° °

أما بعد .. فقد قيل لى وأنا أعد صفحات هذا الكتاب أنه خليق بأن يحمل إلى أبناء جنوب السودان شيئاً من أخبار قائدهم رابح ربما يكون النسيان قد عدا عليها ، وأنهم سوف يتلقفونه كما يتلقف الابن رسالة من أبيه الذى غاب عنه طويلا ..

وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد بعيد .. ولكننى مع ذلك لا أعد هذا الكتاب لأبناء الجنوب وحدهم بقدر ما أسوقه أيضاً

لرجال التاريخ فى مصر ممن شغلتهم الأحداث عن كتابة حاضر السودان وماضيه فباتت بذلك مكتبتنا العربية تعانى حتى اليوم نقصاً كبيراً فى هذه الناحية على ما لها من أهمية وخطر ..

فإن استطاعت هذه الصفحات أن تثير واحداً من كتابنا الأجلاء لينفض تراب النسيان عن بطل آخر من أبطال السودان ، فإن مجهودى فى تقديم هذا الكتاب يكون قد أثمر ثمرته المرجوة ، وتكون كل مشقة بذلتها فى تجميع مواده من مختلف المصادر رخيصة إلى جوار ما حققه من أهداف وبذا يكون قد نجح الكتاب أخيراً فى أداء رسالته نحو شمال الوادى وجنوبه .

والله ولى التوفيق ... ؟

قائمقام

القاهرة فى يوليو ١٩٥٣ سعد الدين الزبير

obeikandl.com